ملحوظة عن دور الخط العربى
فى فن التصوير الإيطالى فى أواخر القرون الوسطى *

للدكتور فريد ليمهاوس

ظاهرة استعمال الخط العربى زُخرفا فى التصوير الأوروبى فى القرون الوسطى غنية عن إعلانها لأنها ظاهرة معروفة بين الباحثين المتخصصين فى هذا العصر من العالمين بتاريخ الفنون والعالمين بالحضارة العربية الإسلامية . وهى الظاهرة التى تولد منها أسلوب الزخرف المشهور باسم الأرابسك . ومن فضل الكلام أنها كانت ظاهرة طبيعية فى هذا العصر لتعدد العلاقات التجارية والعلمية فى أيام الحرب وأعوام السلم على السواء .

ونتيجة لتلك العلاقات التجارية بين جنوب أوربا والشرق الأوسط فى أيام الأيوبيين والمماليك ازداد تأثير الحضارة العربية الإسلامية فى المجتمعات الأوربية فى شمال البحر الأبيض المتوسط فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ومن أهم هذه المجتمعات المجتمع الموجود فى المدن الإيطالية التجارية المستقلة كالبندقية وجنوة وفلورنس .

فقد عرض العالم البريطانى A.H. Christie المعلومات الأساسية فى تطور استعمال الخط العربى فى الفن الغربى للقرون الوسطى فى مقالتين فى المجلة Burlington Magazine فى سنة ١٩٢٢ (١) . وكان العالم الألمانى K. Erdmann يقوم بنشر نوع من الدليل المنظم لمئة وخمسة وأربعين مثالا من استعمال الخط العربى فى الفن الغربى للقرون الوسطى فى سنة ١٩٥٣(٢) وقد أهمل هذا العالم الأمثلة العديدة من الخطوط غير الكوفية كخط الثلث مثلا الذى نشاهده بالتصوير الإيطالى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر على الأخص .

أشار خبراء كثيرون إلى انتشار النفوذ

(1) A.H. Christie, The development of ornament from Arabic script, Burlington Magazine, XL, 1922, pp. 287-92;XLI, 1922. PP. 34-41 .

(2) K. Erdmann, Arabische Schriftzeichen als Ornamente in der Abendlandischen Kunst des Mittelalters, Akademie der Wissenschaften und fliche Klasse, IX, 1953, pp. 467-513 .

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثالثة عشرة صباح يوم الأربعاء ٨ من ذى الحجة سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٦م .

الشرقي وبصفة خاصة النفـــوذ العـــربى الإسلامى فى ذلك العصر الذى نلاحظه فى الفنون التطبيقية كما فى الفنون التشكيلية. ومن أسبابه طبعا وجود أشياء عديدة مـــن أصل عربى إسلامى كـــأدوات منـــــزلية وحلى من الفخار والصـــوانى والملابـــس الفخرية على الأقل فى منـــازل المواطنـــين الإيطاليين الموسرين الذين قاموا بالتجـــارة أو قاموا بتمويلها .

والمشهور أن تجارة مناطق شـــرق البحـــر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت مربحـــــة جدا لجودة منتجات الحضـــــارة العربيـــة الإسلامية . إذن فتقدير هؤلاء الموســـرين تلك الأشياء ؛ وتصويرها فى اللوحـــــات الرسمية نوع من تقديرها وتقدير أصحابها.

كذلك طلبوا تصوير ما أعجبهم وأثار دهشتهم ، لاســـيما الملابـــس المطـــرزة وصوانى النحاس المنقوشة . ووفقـــا لجـــو العصر صور الفنانون مـــــا رأوا بطريقـــة طبيعية وعلى أدق ما يمكـــــن .وكـــانت النتيجة مدهشة ، بخصوصـــــا فى أعمـــال جيوتّـــو (Giotto) (١٢٦٦ – ١٣٣٧) ومازاتســـــيو (Masaccio) (١٤٠١– ١٤٢٩) وجانتيله دا فابريـــانو (Gentile da Fabriano) (١٣٧٠–١٤٢٧) الذيـــن نشروا روائعهم فى فلورنس فى زمن طويـــل أو قصير . وامتـــــازوا بالإحاطـــة التامّـــة بالأشكال ومعالجة طبيعيـــة للأشـــخاص والمناظر . وكذلك نسخوا حتى تهـــــاويل الأشياء المذكورة من أصل عربى إســـلامى. ولم تعدْ حاجة إلى بيـــان مركـــز الخـــط فى الزخرفة العربية الإســـــلامية . ولكـــن لم يـــدرك أولئـــك الرسّـــامون الخـــط العربى كخط، فهموه كزخرفـــة فقـــط ، زخرفة ، زخرفة رائعة شبه منظمة فى وجهة نظرهم.

والعجيب أن رغم ذلك لا نســـتطيع أن نتعرّف على بعض الحروف بل بعـــض الكلمات الكاملة . وذلك نتيجة لمحاولتـــهم للتصوير الصادق بيد أنهم لم يفطنـــوا إلى معنى الزخرفة الصحيحة . كذلك نلاحـــظ على سبيل المثال فى أعمال جيوتّو أمثلـــة الملابس العربية وفى حواشيها المطرّزة أشباه الحروف العربية غير أننا نستطيع قراءتهـــا. ولكن فى منظر واحد وهـــــو التقـــديم فى الهيكل الموجود فى كنيسة صغيرة فى بادوفا اشـــتهرت باســـــم Cappella degli Scrovegni . وندرك فى هذا المنظـــــر فى

الطراز علي صدر الطفل عيسى كلمة كاملة وهى الاسم (محمد) [صورة١]!

مع أننا نلاحظ أشباه الحروف العربية المطرزّة فى أعمال الرسّامين المتأخرين وحتى فى تمثال الملك داود لفيروكيو (Verochio) نرى أغلبية أمثلتها فى هالات القدّيسين وخاصة فى هالات العذراء . وكان العالم الألماني رودلف سلهايم (Rudolf Sellheim) في سنة ١٩٦٨ (١) يظنّ أن أشباه الحروف العربية الموجودة فى هالة العذراء الثلاثية الدرفات المشهورة بـ Regello triptych لمازاتسيو متفسّخ من الشهادة الإسلامية [صورة ٢] . وبعده ببعض السنين رأى فورستنير(M.Forstner) نفس الشهادة فى بعض هالات العذراء لجانتيله (٢) . واتخذوا آخرون استنباطهما كجراس (L.Grassi) (٣) وسبالانزانى (M. Spallanzani) (٤) وكريسيانسن (K.Christansen) (٥) .

وهذا غريب جدا مع أنهم أثبتوا حقيقة وجودِ الحروف العربية فى الهالات المذكورة . وغلطوا فى قراءة المكتوب نتيجة لإنكارهم طبيعة المادة التى نُقشت عليها الخطوط. إذا كان الحال كما نقترح هنا وكما اقترحنا قبل هذا فى سنة ١٩٨٤ يعنى أن هؤلاء الرسّامين صوّروا صوانى عربية فالناحية المطلوبة البحث عنها لاكتشاف معنى المكتوب هى نفس النقوش العادية على تلك الصوانى . وأغلبية صوانى القرن الرابع عشر المعروفة مثلا من المتحف الإسلامى بالقاهرة وجدوا لها نقوشًا تقليدية لا نجد فيها الشهادة ، كما هو متوقع لأن وجود الشهادة على أدوات منزلية مهما كانت قيمتها مستحيلة فى الأعم والأغلب . والمعروف أن نجد عليها كثيرًا من العبارات التقليدية المتعارف عليها والعبلرة المألوفة هي التى تبتدئ كالآتى : عز لمولانا السلطان الملك...

(1)R. Sellheim, Die Madonna mit der Schahada, in Festschrift Werner Caskel zum 70. Geburtstag (ed. E. Graf). Leiden. 1968, pp. 308-315.

(2)M. Forstner, Zur Madonna mit der Schahada, Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft. CXXII, 1972, pp. 102-107 .

(3)L. Grassi, Tutta la pittura di Gentile da Fabriano, Milano 1963, p.56 .

(4)M> Spallanzani, Ceramiche orientali a Firenze nel Rinascimento, Firenze, 1978, p. 100.

(5)Keith, Christiansen, Gentile da Fabriano, London 1982, p.99.

وأصبح البحث سهلا بإدراك هـــذه الحقيقة . وفى الواقع نستطيع أن نـــرى فى كثير من اللوحات تتابع حروف يدل على كلمة(السلطان) مشوّهة قليلا أو كثـــيرا [صورة ٢ + ٣] . وكنت معتقدا صحـة هذا المفتاح لسر معنى النقوش العربية علـى اللوحات المذكورة غير أنى ما عرفت مثـلا واحدا دلّ على أكثر من هذا. ولحســـن الحظ رأيت قبل بعض الأســابيع صـــورة لوحة لجانتيله دا فابريانو توضّح صحة ظنى وضوحا كاملا . وهى كســـرة صـــورة العذراء المحفوظة بفيـــلا تـــاتى (Villa Tatti) [صورة ٤] والتى أكملها جانتيله فى سنة ١٤٢٤ تقريبا . والعبارة العاديـــة المذكورة واضحة [صورة ٥+٦] حـــتى بأسلوبها المعتاد [صـــورة ٧] فى ذلـــك العصر وكذلك نستطيع أن نقرأ بسهولة : عز لمولانا السلطان الملـــ ... وأنا ســـعيد جدا أن أشارككم فى اكتشاف هذا الـــذى كشف لنا مصير صينية عربية أو بعـــض الصوانى العربية التى سفارت من وطنها إلى فلورنس .

فريد ليمهاوس

عضو المجمع المراسل

من هولندا